كتاب جغرافية نهر الحياة

المشاركات : مشاركة رقم (53) بتاريخ الاثنين 2013/9/2

حمدي هاشم: ما أحوج مصر إلى أمثالِهِ!

أبو زيد راجح (*)

عرفت الأستاذ الدكتور حمدي هاشم قبل أن ألتقي به. عرفته من خلال مقالاته وأبحاثه التي كانت تنشر تباعاً في الجرائد والمجلات. وكانت دائماً تتسم بعمق الفكر والغزارة في الإنتاج كما كانت تتطرق إلى العديد من أوجه الحياة المصرية ومجالاتها المختلفة. ولذا فقد كان انطباعي الأول عنه أنه أستاذ أكاديمي Scholar عميق الفكر غزير الإنتاج موسوعي المعارف.

ثم عرفته عن قرب عندما قامت أكاديمية البحث العلمي في عام 2010 بدراسة موضوع هام يمس مصر في حاضرها ومستقبلها، وهو الانتشار السكاني من الحيز المعمور الحالي إلى محاور وأقاليم تنموية جديدة في صحراوات مصر وسواحلها. ذلك لأن الحيز الحالي قد ضاق بساكنيه منذ فترة ليست قصيرة وأصبح غير قادر على استيعاب مزيد منهم. فالزيادة السكانية المتفاقمة والمتسارعة منذ منتصف القرن العشرين وحتى الآن قد تمت في حيز محدود دون أن يقابلها اتساع مكاني متكافئ معها، ودون تنمية اقتصادية واجتماعية متناسبة ومتزامنة مع حجم هذه الزيادة السكانية المفرطة.

وقد أدى ذلك إلى آثار مدمّرة على النسق العمراني المصري، و تدني في مستوى جودة الحياة الحضرية به في كل عناصرها. ويتمثل ذلك في الآتي: تمكن العشوائية من بنية العمران المصري بأكمله، وامتداد المدن والقرى رأسياً وأفقياً امتدادا مشوّهاً كبيراً خارج نطاق القوانين واللوائح المنظمة للبناء والتخطيط العمراني، وزيادة التكدّس السكاني والكثافة السكانية حتى صارت من أعلى الكثافات في العالم إن لم تكن أعلاها. فضلاً عن غياب التناسق الحضري وزيادة معدلات التلوّث البيئي والتلوّث البصري والسمعي الذي أصبح يغطي وجه المدنية المصرية بكاملها في الوقت الحالي. فإذا كان هذا هو الوضع الآن نتيجة للزيادة السكانية التي تمت خلال النصف قرن الأخير والمقدّرة بحوالي خمسين مليون نسمة فماذا يكون عليه الوضع مع زيادة سكانية إضافية متوقعة تقدر بحوالي سبعين مليون نسمة خلال الخمسين سنة القامة، إذا ما ظل عليه الحيز العمراني المأهول الحالي على ما هو عليه؟!.

أمام هذا التدني العمراني الشديد، وأمام تحديّات المستقبل التي تواجه مصر قامت الأكاديمية بدراسة كيفية الخروج من هذا المأزق التاريخي والجغرافي إلى آفاق جديدة خارج الوادي والدلتا وبدء حياة جديدة لها أنماطها الإنتاجية والتنموية، وهياكلها العمرانية وأنساقها الاجتماعية. وتكون متّسقة مع الفكر المعاصر الجديد في الإدارة والحوكمة، ومع المستجدات الحديثة في حتمية الانتقال من استخدام التقنيات التقليدية التي عجزت عن تلبية متطلبات العصر إلى استخدام التقنيات الحديثة المتقدمة في كافة مناحي الحياة، مع السعي الحثيث نحو الانتقال من المجتمع الزراعي التقليدي إلى مجتمع المعرفة الحديث. أي الانتقال بمصر من دولة نامية إلى دولة متقّدمة تشارك غيرها من الدول في صنع الحضارة المعاصرة والتقدم الإنساني.

وقد قامت الأكاديمية بتكوين اثنتي عشرة لجنة من علماء مصر، كل منها يختص بجانب من جوانب هذه الدراسة الشاملة. وكانت لهذه اللجان أمانة فنية تقوم بالتنسيق بين عمل اللجان لكي تسير جميعها في تناسق وتكامل لتحقيق أهداف هذه الدراسة.

وعند تكوين اللجنة المختصة بدراسة "الأقاليم البيئية" في مصر كان اتفاق الجميع على أن الدكتور حمدي هاشم هو خير من يتولى إدارة هذه اللجنة، نظراً لمكانته العلمية ولأهميتها البالغة. وقد قامت اللجنة بأداء مهامها خير قيام تحت قيادته الحكيمة الرشيدة.

لقد وضعت اللجنة المبادئ العلمية، والتي يمكن على أساسها تحديد الأقاليم البيئية في مصر. ثم قامت بدراسة خصائص كل إقليم منها، وميزاته النسبية، وأنماط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، والأنساق العمرانية التي يمكن أن تقام فيه، بجانب تحديد قدراته الاستيعابية لحجم ونوعية السكان الذين يمكنهم أن يتوطنوا به. كما اشتملت الدراسة على علاقات الأقاليم الوظيفية التي تجمعهم جميعاً في كيان قومي تنموي واحد متكامل. وتعتبر هذه الدراسة بحق فتحاً جديداً وغير مسبوق في مجال علم الدراسات الإقليمية Regional Studies وإضافة هامة له.

وفي أثناء عمل هذه اللجنة والتي استمرت نحو ما يقرب من عامين كان لي شرف التعرّف عن قرب على الصديق الكريم الأستاذ الدكتور حمدي هاشم. وقد أدركت عن يقين أنه من أنبغ علماء المدرسة الحديثة في علوم الجغرافيا والتي كان نجمها الساطع خالد الذكر جمال حمدان.

لقد جمعت الجغرافيا في مفهومها الحديث "جغرافية المكان" و "جغرافية الإنسان" مع "جغرافية الزمان" في كيان علمي متكامل دائم الحيوية والنمو: المكان بكل إمكاناته والإنسان بكل ملكاته والزمان بكل متغيراته ومستجداته. ويتصل هذا العلم بكافة العلوم الإنسانية الأخرى في قنوات مفتوحة يؤثر فيها ويتأثر بها وينمو بها وتنمو به.

وقراءة هذه الجغرافيات الثلاث، السابق الإشارة إليها والمتوحّدة في خطاب جغرافي شامل واحد لا تقتصر فقط على رصد وتحليل تفاعلاتها الحية المتشابكة مع بعضها البعض، بل أيضاً في استشراف ما وراء ذلك من رؤى ومعانٍ، تمثل بحق علامات مضيئة في مسار الفكر الإنساني. وهكذا تحولت الجغرافيا من البصر إلى البصيرة، ومن علم من علوم الجماد إلى رحاب الحكمة والفلسفة.

في هذا الإطار الشامل للجغرافيا الحديثة برز الدكتور حمدي هاشم فيما قد نسميه مجال "جغرافية العمران". لقد قام بوضع الأسس العلمية لهذا المجال وساهم في دفع معارفه إلى آفاق رحبة جديدة. والعمران هنا هو العمران الذي عرّفه ابن خلدون بأنه ليس فقط بناء "العمائر والأسواق والخانات" بل بناء الحياة الحضرية بكل مكوّناتها ورصد ما يجري عليها من عوامل النمو والازدهار ثم عوامل الضعف والاندثار في دورات حضارية متعاقبة.

وإنني لأتمنى للأستاذ الدكتور حمدي هاشم التوفيق فيما يسعى إليه، وأدعو الله أن يبارك له فيما يضيفه إلى عمران العقل والفكر. إن مصر الآن في هذه المرحلة الحرجة من تاريخها أحوج ما تكون إليه وإلى أمثاله وإلى تلاميذه النجباء الذين يسيرون على دربه في الجد والإخلاص للانتقال بها من عصر غربت شمسه إلى عصر مشرق جديد إن شاء الله تعالى.

(*) (دكتور) رئيس المركز القومي لبحوث الإسكان والبناء، ورئيس شعبة الإسكان والتخطيط العمراني والمجتمعات العمرانية الجديدة بأكاديمية البحث العلمي سابقاً، ومقرر مجلس العلوم الهندسية بأكاديمية البحث العلمي.

وقد عملت تحت قيادة سيادته الرشيدة في محور الانتشار السكاني وتعمير الحيز غير المأهول في صحراوات مصر وسواحلها ـ العمران الأخضر المستدام (مجلس العلوم الهندسية بأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا)، وذلك في المدة من مارس 2011 ـ سبتمبر 2012، من خلال مجموعتين من اثنتي عشرة مجموعة تحتوي ذلك المحور، هما:
ـ عضو مجموعة دراسة الشرائح السكانية المستهدفة للانتقال للمناطق الجديدة وتهيئتها اجتماعياً وثقافياً لحياتها الجديدة في هذه المناطق.
ـ عضو ومقرر مناوب مجموعة دراسة خصائص الأقاليم البيئية المختلفة خارج الوادي والدلتا وتحديد الأنماط العمرانية والتنموية الملائمة لها.

• الكتاب متوفر في محلة "جماعة الرواد" بالقللي بجوار مجمع محاكم الجلاء ـ الاتصال تليفون (25776624).

• مشاهدة فيديو مناقشة الكتاب والتعليق عليه في الرابط التالي:
https://www.youtube.com/watch…